القضاء البريطاني

في القرون الوسطى

اعظم مأساة تاريخية

كانت القرون الوسطى في اوربا ساحة للحروب وميداناً لسفك الدماء ، وكان القضاء فيها تحت سيطرة العروش لانه كان للملك القول الفصل في الاحكام وكان التعصب الديني آخذاً مأخذه من النفوس وكان الدين وسيلة لاثارة كثير من الحروب وتحليل ارتكاب الموبقات مع ان الدين براء من ذلك ، وقد ذكر التاريخ كثيراً من فظائع ديوان التفتيش وما كان يرتكبه قضاته اندفاعاً مع التعصب الاعمى وارضاء للوهم الخبيثة التي كانت لاتستأنس الا باهراق الدماء .

وليست غايتنا الان بسط احدى حوادث ذلك الديوان الهائل ، فان هذه الحوادث مع شدة استفظاعنا اياها لاتذكر الى جنب تلك المأساة العظمى التاريخية التي لم يكن بطلها ديوان التفتيش الذي اشتهر بالفظائع والمظالم وانما كانت هيئة قضائية لم يكن التعصب الديني المقوت اليه ، ثم على احكامها . ولم يسيطر عليها رأس متوج

تلك هي المأساة التي جرت ايام حكم الملكة اليصابات ابنة الملك هنري الثامن الذي اشتهر بفظاعة ما استعملت ارتكابه من الجرائم هذه الملكة الانكليزية . وتحرير الحادثة هي ان الملكة ماري ستيوارت ، ملكة فرنسا وايتوسيا وحفيدة هنري الثامن ، التجأت الى الملكة فريتها هرباً من اخيها موري الذي كان ينازعها الحكم ، بدعوة انها وما كادت تلجأ لدى ماري ارض انكلترا ، حتى حجزت عليها في احد القصور النائية

بعد ان كانت ساعدتها بالمساعدة العملية واعادتها الى عرشها المغتصب ، الى ان جاءت لها الفرصة فالقت بها بين ايدي القضاء الانكليزي الذي كانت تديره كما تشاء متهمة اياها بتهمة قد حبكت حبائلها بمساعدة بعض رجالها الخائنين على تلك الملكة التاعسة .

وقد حوكمت وحكم عليها بالاعدام دون ما نظر الى عدم ثبوت التهمة والى عدم الاستناد على ما يوجب ذلك الحكم الرهيب ، حتى ان السر ولتر سكوت وهو احد رجالات انكلترا الاحرار ، قال في ذلك ما لي وكان قوله اظهر برهان على خروج القضاء البريطاني عن جادة العدل يومئذ ، قال :

« لم يكن في الادلة التي جمعت لاتهام ماري ملكة ايقوسيا ما يكفي لاعدام احط المجرمين ، ولكنه كان لورثة القضائية من القسوة والنذالة رغم ذلك ما اعتبرت معه الملكة ماري ستيورات مجرمة ، والاغرب ان البرلمان الانكليزي صادق على ذلك الحكم الظالم » اهـ .

من ذلك يستدل على ما كان لتلك المآسات التاريخية القضائية من الصدى المر حتى في قلب الانكليز انفسهم ، ولهذا اعتبرتها دون غيرها من المآسي التاريخية ليرى القراء بماذا كان يدافع الملوك عن عروشهم متخذين القضاء آلة ينفذون بها ما يريدون ويدينون وسيلة يرجمون بها سخط الشعب وحقد على من حكموا عليه مقدماً بالموت .

وقد ذكر بعض المؤرخين ، تعرضة الملكة اليصابات او تخفيفاً لجرمها التاريخي ان السبب الذي دفعها الى طلب اعدام قريبتها هو حبها للعرش الانكليزي البروتستاني وخوفها من ان ينتقل بالارث ، لانه لم يكن لها خلف للملك ، الى الملكة ماري الكاثوليكية التي لها حق فيه بصفتها حفيدة هنري الثامن ، او لخوفها من ان تقوم بمساعدة فرنسا او اسبانيا فتعيد الكثلكة الى العرش الانكليزي ، ولكن مهما اجتهد المؤرخون في ايجاد عذر للملكة اليصابات فانهم لن يمحوا عن القضاء الانكليزي

تلك الوصمة التي لصقت به ولن يزيلوا اثر دماء الجريمة عن درجات العرش التي ستظل بقعة سوداء في تاريخ تلك الملكة الداهية والتي لم يدانها اليها غير تعصبها المعقوت وغيرتها النسائية الذميمة .

الحجر على الملكة : التجأت الملكة ماري الى قريبتها الملكة اليصابات بدعوة منها هاربة من اخيها فكانت كمن يستجير من الرمضاء بالنار ! وقد استندت اليصابات في الحجر على ضيفتها الى وجوب اثبات براءتها من التهمة التي عزيت اليها وهي التسبب بقتل زوجها وابن عمها اللورد دارنلي ، وفي الوقت نفسه كانت تتظاهر للملكة ماري بانها لا تزال على وعدها لها باسترجاع عرشها من اخيها واعادتها اليه كيفما كانت نتيجة المحاكمة !

وقد اطلعتها ذلك دون ان تسمح بمقابلتها ، واخذت تجتهد منذ ذلك اليوم في حبك الحبائل ونصب الشراك للايقاع بتلك الملكة التي كان محجوراً عليها في قصر « شفيلد حيث قضت خمسة عشر عاماً في ذل الاسر » .

وشكلت اليصابات لجنة للتحقيق في التهمة الموجهة الى ماري كان اعضاؤها الدوق اوف نورفلك والكونت دي سسكس والسر رالف سدلر واخذ اخوها موري على عاتقه مهمة النائب العام . وبالرغم عن ان اللجنة اتت الحكم في القضية لانعدام الادلة التي تثبت ادانة ماري فان اليصابات لم تقم بوعدها الذي سبق من ارجاع ماري الى عرشها بل تركتها في محجرها بقرقبة الفرص للفتك بها .

وكان لماري في باريس وروميه ومادريد انصار عديدون يعملون على اعادتها الى عرشها بينما كان الكاثوليك في انكلترا نفسها عدا ايقوسيا يطلقون آمالا جساماً عليها فهال ذلك اليصابات خصوصاً بعد ان اكتشفت مؤامرة دبرها الدوق اوف نورفلك لانقاذ ماري ومساعدتها ، فثبت مغبة ذلك واخذت تضع الخطط لتتهم ماري بتهمة التآمر على حياتها .

وقامت الملكة الانكليزي بعد ان اعدمت الدوق نورفلوك الى اصدار قانون طالما يتضرر باحكامه كل من يثبت عليه التآمر على حياة الملكة وكل من تعود نفسه المؤامرات الى صاحبها اذا كانوا على علم بها . ثم عهدت الى وزيرها والسنجهام ان يدير تهمة تؤخذ ماري بها .

تدبير التهمة : فلم يتوان والسنجهام في العمل بارادة ملكته ، واهتم منذ ذلك اليوم بالتهمة التي عهدت بها اليه يساعده بعض الانصار الذين باعوا ضمائرهم ومنهم المدعو جريجوري الذي كان مكلفاً بفض الرسائل وفك الاختام والخطوط السرية والتوقيعات واحد يشتد في مراقبة الملكة ماري بعد ان دبر حيله تقع فيها الرسائل الواردة منها والصادرة منها في يده قبل ان تصل لاصحابها ، واخذ يترقب وقوع رسالة منها الى انصارها او منهم اليها فينجدها سلاحاً يشهره ضدها ، فمرت الايام دون ان يظفر بطائل .

والحق ان كتبت ماري مرة رسالة بسيطة الى رجل من انصارها يدعى بابنجتون لم تذكر فيها شيئاً ، ولكن جواب بابنجتون عليها كان مطولا فصل فيه كافة ما يبذله انصارها من اجلها وشرح كافة المؤامرات التي يدبرونها ضد اليصابات .

والتقط الخطاب في يد والسنجهام طعماً ، فاحاله هذا الى جريجوري الذي فض ختمه بما اشتهر عنه من البراعة ، وبعد ان نسخه اعاده الى علاته وارجع الختم الى حاله واوصله الى الملكة ماري . وبذلك كان لاليصابات مارجتة من ايقاع فريستها في الشرك الذي نصبته لها واسطته .

واجابت ماري على كتاب بابنجتون ، فرأى والسنجهام ان كل ما يرجوه وترجوه ملكته من وضع ذلك القانون قد تم ، فاشار الى جريجوري باستنساخ رسالة ماري الزيادة ما يمكن ان يكون كافياً لاستصدار الحكم عليها بالاعدام عملاً بالقانون الجديد ، وبذلك ابتدأ الدور الرهيب في هذه القضية .

القبض على ماري : وفي اكتوبر عام ١٥٨٦ اصدرت اليصابات امرها بالقبض على ملكة اسكوسيا فنفذ حالاً ، وكان بابنجتون قد حوكم مع شركائه دون ان يواجه بالملكة ماري وقضى وايام شهيد التهذيب المخيف دون ان يفوه بكلمة تدل على ان لماري يد في المؤامرة ، وكانوا قد فتشوا قصرها تفتيشاً دقيقاً دون ان يعثروا على ما يؤيد التهمة ضدها ، ومن ثم اصدرت اليصابات امرها بتشكيل هيئة محاكمة لماري .

وقد رفضت ماري الامتثال لأمر اليصابات بالمثول امام الهيئة محاكمتها واحتجت على ذلك احتجاجاً شديداً قائلة انها ملكة اجنبية لا تعترف باختصاص الانكليزي ولا بالهيئة التي شكلت لمحاكمتها كما انها لا تخضع لأوامر ملكة تمت اليها بقرابة وتعادلها في المرتبة ، ولكن احتجاجها لم يفدها شيئاً وابلغتها اليصابات انها اذا لم تمثل بالمثول امام الهيئة حوكمت غيابياً بموجب القانون وحكم عليها .

فلم تجد ماري حينئذ بداً من المثول لدى الهيئة مدافعة عن نفسها خشية ان يصدر الحكم ضدها غيابياً . ولكنها ما تزال في الاحتجاج بأية امام الهيئة محاكمتها وهي ملكة اجنبية لا تعتبر القانون الانكليزي ، لا يجب ان يسري عليها بتاتاً ، وان القضاة دينا يخالف دينها .

المحاكمة : ولكن الهيئة لم تسمع لها واحدت في محاكمتها تهمة المؤامرة على حياة الملكة مستندة في ذلك الى خطابات زعمت انها تبودلت بين ماري وبابنجتون .

فسخرت ماري من هذه المزاعم وطلبت الاطلاع على تلك الخطابات فاذا بها صوراً عنها فقط ، واما الخطابات الاصلية فحجزت الهيئة عن تقديمها لانها لا تملك سوى تلك الصور التي اعدت بها يد حريجوري المزورة حسب مشيئة اليصابات ، فصاحت قائلة :

— اني انكر اني تبادلت مثل تلك الخطابات ، او اني كاتبت بابنجتون .

ولما اشار المدعي العام الى معاملتها مع سفراء فرنسا وروسية واسبانيا ومراسلتها السرية لهم قالت:

— انني لاانكر مراسلتي للامراء الاجانب ، فانه يحق لي ذلك كملكة اجنبية اسعى الى استعادة حريتي . اما انني تآمرت على حياة اليصابات وكاتبت بابنجتون فهذا انكره كل الانكار .

وكانوا قد قرأوا عليها اعترافين من امينيها زعموا انهما صدرا منهما وذيلاهما بتوقيعهما وفيهما بتهمانها بالتآمر على حياة الملكة . فطلبت مواجهتهما قائلة :

— لقد زعمتم قبلا ان بابنجتون وشركاه شهدوا ضدي وقرأتم علي اعترافاً قلتم انه صدر من بابنجتون قبل موته ، وقد قتلتم ذلك الرجل مع شركائه مما لم يعد بالامكان مواجهتي بهم فلماذا لا تواجهوني بأميني عملا بقانونكم نفسه الذي ينص على الا يحكم بادانة احد بتهمة التآمر على حياة الملك مالم يواجه بشاهدين يشهدان امامه ويحلفان اليمين ؟ وما هذه المهزلة القضائية التي تمثلونها ؟

وقد اتفقت الجلسة على ان تعقد في اليوم التالي بعد ان دافعت ماري عن نفسها خير دفاع . وبعد ان ساد المرح على الصحيح في قاعة المحكمة .

عادت ماري في صباح اليوم التالي الى استئناف دفاعها قائلة :

لقد استخدمتم كل ضروب العسف والجور في تنظيم هذه المحاكمة ، فأنا احتج بشدة على هذا الاسلوب الهزلي الذي تسير عليه محاكمتي ، واطالب ان تسمع اقوالي امام الملكة اليصابات نفسها التي تأبى مواجهتي منذ خمسة عشر عاماً وامام البرلمان منعقداً بكامل هيئته .

لقد قاسيت كثيراً من ضروب الاهانة والعسف وغلائم حرية دفاعي بما لم يسمع به قبلاً ، اكي تبنون خطة لا يقرها الله عليها ولا الشريعة .

ولما حذر بركلي رئيس الهيئة القضائية بقاطعها متجهزاً ضدها صرخت بغيظ :

— يظهر انني لست امام حكم عسكري مقدماً . وقد تقرر اعدامي منذ زمن طويل لان حياتي تترك للملكة محالاً للامل في استرداد حريتها الدينية . اما انت فالملك عدو لي .

وبعد اخذ ورد بين هذه الملكة التاعسة وبين قضاتها بل جلاديها الذين كانت كل اقوالهم وحركاتهم تدل دلالة صريحة على التحيز ضدها ختمت الجلسة واختلى القضاة للمذاكرة . وفي تلك الاثناء وصل رسول من قبل الملكة يطلب باسمها تأجيل اصدار الحكم لتطالع اوراق القضية بنفسها فاجل الى عشرة ايام .

الحكم بالاعدام : كان ذلك في ١٥ اكتوبر وفي الخامس والعشرين منه عادت الهيئة فالتأمت في بهو مستعمستر وسمعت اقوال ابنتي الملكة مارسيه اللذين لم يعترفا بشيء ضدها وقد كان ذلك بعيانها ولسنا ندري الملجأ ذلك حضيصاً ام اتفاقاً! ولكن الذي نعلمه و يقره التاريخ هو ان الملكة ماري « المتهمة » لم تواجه الشهود كما يقضي قانون البلاد ! .

وبعد اخذ اقوال الشهود اصدر الاعضاء الحاضرون ، وكان عددهم ستة وثلاثين عضواً ، حكمهم بالاجماع باعدام ماري ، مما يدل على ان هذا الحكم كان مقرراً من قبل هو ان الاثني عشر العضو الباقين — وقد كان منهم من رفض — وقعوا كتابة على ذلك الحكم .

وهكذا صدر الحكم باعدام ماري ستوارت ملكة فرنسا وايكوسيا لانها اقترنت سوء كونها حفيدة هنري الثامن وذات حق في العرش الانكليزي كاثوليكية .

السعي لاغتيال ماري في السجن : صدر الحكم ولكن تنفيذه لم يكن بالامر الهين الممكن اجراؤه ، فقد كانت اليصابات تخشى ان يفضي ذلك الى تدخل فرنسا او اسبانيا او ايكوسيا ، ولهذا كانت تعرض عن ذلك راضية ونتم بتأجيله دون ان تعرض

لاي سوئية . فشعرت ماري بذلك ، كتبت الى قريبها هنري دي لورين والمعروف باسم الدوق دي كيز تقول له انها تتوقع الموت بالسم او بطريقة اخرى سريعة .

و بعد ان مرت الاسابيع على صدور الحكم ، قدم المستر دافيسون الامر بالتنفيذ الى اليصابات ولم تتأخر لحظة عن توقيعه ، لكنها قالت له : كم اكون سعيدة لو جعل احد رعايا المخاصين امر التنفيذ شيئاً لا ضرورة له . . .

فهم دافيسون غايتها ونقل ارادتها الى والسنجهام بطل هذه الحادثة ، فكتب الاثنان الى السر امياس يدعوانه بلسان الملكة الى اغتيال ماري وهي في سجنها بطريقة سرية ، ولكن السر امياس ابى قائلاً :

— انني لا ارتكب جرماً يأباه الله ، وينكره القانون .

فلم يجد دافيسون عندئذ ، وقد صادقت الملكة اليصابات على تنفيذ الحكم ، بداً من تنفيذه ، فقدم الامر بذلك الى الكونت شروزبوري الذي عليه بصفته القائد الاكبر ان يحضر التنفيذ ، الى الكونت «اوف كنت» عاهداً اليهما ابلاغه الى الملكة ماري .

تبليغ الحكم : وكانت تلك الفتاة مريضة ملازمة سريرها حين زارها ذانك الرجلان ، فرأا عليها صفة الامر العالي ، ولكنه لم يبد عليها شيء من التأثر ، تلفظت بكلمات دلت على انها سعيدة بهذا الحكم الذي دبره الله لينقذها من حياة هي سلسلة من المصائب والاحزان سببها اعداؤها . ولما اطلعها الكونت شروزبوري صوت متعنتم على ان تنفيذ الحكم سيكون الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي . احتجت على ان هذا التأخير في ابلاغها الامر ، وطلبت ورقاً لتكتب وصيتها .

وقضت ماري ساعات طوال في كتابة وصيتها التي عهدت بتنفيذها الى قريبها الدوق دي كيز وفي تدبير شؤونها وتوزيع حليها ومتاعها على افراد حاشيتها كتذكار منها لهم ، حتى اذا اتت كل ذلك تمددت في سريرها بأجمل ثيابها واخذت تصلي

بحرارة وخشوع واتباعها من حولها يذرفون الدموع ، حتى الصباح .

في ٨ فبراير سنة ١٥٨٧ : وقبل بزوغ الفجر ، وكان ذلك صباح ٨ فبراير سنة ١٥٨٧ ، غص القصر بالجنود الذين جاؤوا لاقتياد مارسيه الى ساحة الاعدام ، فسارت معهم يتبعها حشمها الذين استأذنت لهم بمرافقتها .

وسارت بين جلاديها كشهيدة بارة وليس كمتهمة تساق الى حيث تجازى على ما ارتكبته ، وهناك ، بعد اتمام الاجراءات القانونية ، دنى الكاهن منها واخذ يعظها بعطف وقسوة ، فانهمته انها تعفي عن عظته وأشارت اليه ان ينتحي ، وهكذا انبعوها بالارهاق والعسف حتى ساحة الاعدام !

وبعد صلاة قصيرة ، اشارة الى وصيفتها ان تساعدها على خلع بعض ثيابها تسهيلا لتنفيذ الاعدام معفية الجلاد من ذلك فعلت بين صمت الحضور وحزنهم العميق .

وقد بكى الشعب كثيراً حين رآها تصلي بخشوع وحرارة .

ولما كانت التقاليد تقضي بأعداء السلاء بالسيف دهشت ماري كثيراً حينما رأت جلادها يقودها الى النطع ليقطع رأسها بالفأس ، ولكنها لم تبد اي ممانعة بل جثت عند النطع واسلمت رأسها للجلاد وهي تصلي دائماً .

وكانت الساعة الرهيبة !

فقد اشهر الجلاد فأسه ورفع الكونت شرنز بوري يده بعصاه القصيرة ، مؤذناً بالتنفيذ وقد حول وجهه تأثراً .

وهوى الجلاد بفأسه على عنق الملكة ماري ستيوارت ، ملكة فرنسا وايقوسيا وحميدة هنري الثامن وورثة عرش انكلترا ، بين زفرات الحضور وحسراتهم والمهم العميق ، فهل يفصل الرأس الا بعد الضربة الثالثة !

وبينما كان الجلاد يرفع يده بالرأس المقطع بالدماء ، كان مساعده يحجب الجثة بستار ابيض كان كفنها الوحيد .

وكانت تلك المكنة المكودة ، قد طلبت من البصمات في ساعتها الاخيرة ان تأذن بدفن جثتها في ارض فرنسا ، ولكن البصمات رفضت ذلك .

وهكذا اعدمت ماري استيوارت دون ان يسمح بتنفيذ ارادتها الاخيرة ؛ وهكذا تمت تلك الفاجعة التي هي اعظم مأساة قضائية عرفها التاريخ !

***

في تعيين السن

يجب ان لا يعتمد في تقرير السن على الجثة او الهيئة ولا على تقرير الطبيب لانه ليس من الوثائق المعتبرة في هذا الشان في (٩ شعبان سنة ١٢٩٨ و٢٢ كانون الاول سنة ١٣٠٧ دائرة الجزاء) واقوى حجة لتعيين السن قيود دائرة النفوس لانها من الوثائق المعتبرة حتى يثبت بطلانها (في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٢٩٩ و٥ شباط سنة ١٣٠٧) ولكن اذا كان السن المبين في تذكرة النفوس لا يتفق مع ظاهر الحال فيجوز حينئذ الفحص عن الحقيقة ضمن الاصول . وكون تذاكر النفوس معدودة من الاوراق الرسمية لا يمنع في مثل هذه الاحوال من الفحص (في ٢٧ مايس سنة ١٣٢٨ . عدد ١٥٦ دائرة الاستدعاء)

لا يعتد بتصديق المدعى الشخصي المتهم في تعيين السن (١ كانون الاول سنة ١٣٠٢) ولكن اذا تعذر تعيين السن فتعتبر افادة المتهم (٢١ اغسطوس سنة ١٣٠١ و٢٢ كانون الاول سنة ١٣٠٧) كما ان تعيين المتهم سنه لدى دائرة الاستنطاق لا يمنعه من الادعاء لدى المحكمة بخلافه (في ٥ شباط سنة ١٣٠٧) . كما انه لو حصل تباين بين اقرار المتهم والقيد الرسمي فيجب الفحص والتدقيق ولو كان المتهم اقر بان سنه اكثر مما هو مقيد في تذكرة النفوس ، تتعلق ذلك بالحقوق العمومية (٧ شباط سنة ١٣٣٠ . عدد ٤٦٥ دائرة الجزاء)